جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامـــعة ديـالـــــى
كلـــــية التربيـــة

وظيفة الشعر في التراث البلاغي النقدي عند العرب من الجاحظ (ت255هـ) الى حازم القرطاجني (ت684هـ)

رسالة تقدمت بها الطالبة

وســـن عبد المنعم ياسين آل فليح الزبيدي

إلى مجلس كلية التربية ـ جامعة ديالى

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور

فاضل عبود خميس التميمي

1425هـ 2004م

مدخل

شغل النقاد والبلاغيون العرب القدماء في تحديد جمال الشعر، فقد كان لديهم ولعٌ في البحث عمّا هو جمالي ... تشكل الاراء الانطباعية القائمة على التذوق الفردي البذور الاولى لمفهومه،[1] ومن المعلوم ان التذوق الفردي هو اللون الذي تلونت به الاحكام النقدية في العصر الجاهلي، وفي عصر صدر الاسلام، والعصر الاموي، لان النقد في هذه الحقبة وقف عند حدود تذوق العمل الفني، والقول بجماله أو قبحه، فهو نقد غير معتمد على نظرية أو اساس جمالي، يصدر أحكامه ويقدّم اعماله بحسب نظرية معروفة. [2]

ثم توسع ذلك المفهوم في النقد العربي ليتخذ أشكالاً شتى تابعت المنجز الشعري وعبّرت عن رأيها فيه، لاسيما في اللفتات النقدية العميقة التي احتوتها متون الكتب النقدية البلاغية، التي كانت مدار جدلٍ طويل في قضايا لعلَّ من أهمها:

قضية اللفظ والمعنى، وما تمخض عنها من ظهور مواقف مختلفة، من بين مقدم لألفاظ الشعر، ومؤخر لها، وممن ساوى بين الاثنين.. والطبع والصنعة، والسرقات الادبية، فضلاً عن الصدق والكذب في الشعر، فإنهم يقصدون الجمال في كل ما يقولون، ويظهر ذلك في تقديمهم حسن الكلام وجودته، على صدق الفكرة أو عمقها، أو معناها الفلسفي، وهذا ما سوغ تفضيلهم للبحتري، لجمال عبارته وموسيقيتها وتفضيلهم له على أبي تمام، لغرابة معانيه. [3]

لقد تنامى ذلك الحس بعد أن خرج من الجانب الحسي المجرد الذي مثّله الجاحظ الى الجانب العقلي المعلل، وهذا ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني الذي شغل بقضية الاعجاز والكشف عن مضامينه الجمالية .. وما أن نقترب من القرن السابع من الهجرة حتى يشخص لنا حازم القرطاجني بما ارساه من دعائم منهج نقدي متقدم، مستلهماً مفهوم الجمال ومطبقاً إياه على النقد العربي وهذا ما سنتناوله لاحقاً في مكان آخر من الدراسة.

---

[1] للمزيد عن هذه المسألة ينظر: كتب تاريخ النقد وهي كثيرة.

[2] ينظر: النظرية النقدية عند العرب: د. هند حسين طه: 228، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، 1981م.

[3] م.ن.

اننا ننظر اليوم الى تلك المحاولات بعين التقدير ؛ ذلك لانها سوّغت تمثل الشعر في الحياة، وعددت طرائق الاتصال به، ومن ثم استيعاب تجلياته.

الجمال بين اللغة والاصطلاح:

إن الجمال موضوع تتنازع البحث في ماهيته العلوم والاداب والفلسفات والاديان والاساطير والمنجز المادي والروحي من الثقافة والحضارة والتمدن. [4]

والوقوف على المعنى المعجمي للفظة (جمال) يعدُّ المقدمة الضرورية أو المدخل الانسب الى الدلالة الاصطلاحية المتطورة.

الجمال لغة:

يحيل المعجم اللغوي كلمة (جمال) على الجذر (ج.م.ل)، ((والجمال الحسن، وقد جمل الرجل بالضم جمالاً فهو جميل، والمرأة الجميلة)) [5]، و((الجميل صفة تلحظ في الاشياء وتبعث في النفس سروراً ورضا)) [6]

الجمال بمدلوله الاصطلاحي:

أما الجمال بمدلوله الاصطلاحي فنجد فيه اختلافاً، فهناك من رفض فكرة وضع حد معلوم له، وعدّه أمراً نسبياً، يصعب قولبته .. ولكننا نجد على الطرف الاخر تعريفا مقبولاً للجمال على انه ذلك الذي لدى الرؤية يسرُّ – أي انه يسر لمحض كونه موضوعاً للتأمل، سواء عن طريق الحواس أم في داخل الذهن ذاته. [7]

يحمل الجمال بين دفتيه مفهومين، المفهوم القديم وهو التناسب والتناغم والتنظيم أي كلما تكون الاشياء متناسبة ومنتظمة ومتناغمة تكون جميلة، فقسمات الوجه عندما تكون منتظمة

---

[4] ينظر: الجمال والفاظه في شعر بلنسية: علي محمد حسين: 27، اطروحة دكتوراه في اللغة العربية اداب المستنصرية: 1994م

[5] ينظر: الصحاح: الجوهري: 4، مادة جمل: 1661، ولسان العرب: ابن منظور: 123/11، القاموس المحيط: الفيروز ابادي: 351/3.

[6] معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب: 138.

[7] ينظر: موسوعة المصطلح النقدي: 272، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، العراق، 1982م.

تكون جميلة،[8] و((كلمة جمال، حيثما استخدمت ومهما استخدمت فانها تدل على ما تحتويه الاشياء من خصائص تدعونا إلى حبها والاعجاب بها أو اشتهائها))[9].

إنَّ الجمال الاصطلاحي بمفهومه الثاني هو الاكثر وعيا وتطوراً، فهو اللذة فيقدر ماتكون الاشياء جميلة بقدر ما تحقق لدى الانسان لذة عقلية محضة، وهو في الشعر مجموعة من الصفات المؤثرة التي تتمتع بها القصيدة لتشكل مدخلاً مهماً في وعي المتلقي وحاجاته النفسية ... بمعنى آخر أن جماليات الشعر مصدرها الاساس المتلقي لا الشعر نفسه .. ، وقد نرى في الاصطلاح تقارباً بين المعنى اللغوي للجمال وبين المعنى الاصطلاحي، ويقينا أن جمال الشعر قيمة تتخذ اللغة وسيلة لاستظهار مكنونات الجمال التي نبحث عنها في الشعر، متضافرة مع جهود نخبة رائدة من النقاد والبلاغيين عاينت الشعر من منظور الفائدة التي تغلف خطابه العام والخاص.

المحاولات الاولى لتحديد الوظيفة الجمالية:

إن تلك المحاولات أمكن رصدها في المظان الاتية:

أولاً: التعريفات

تتخذ تعريفات الشعر في التراث البلاغي النقدي عند العرب طابعاً مدرسياً كما في قول قدامة بن جعفر (ت370هـ): ((قول موزون مقفى يدل على معنى))[10]، ولكنها اتخذت عند نقادٍ اخرين طابعاً تحليلياً إجتماعياً يتساوق مع تطور النظرية النقدية عندهم التي نحت منذ البدء منحىً تراكمياً كان همّه الكشف عن فاعلية الشعر، فلو دققنا النظر في تعريفات الرعيل الاول من متذوقي الشعر في الاسلام وعلى رأسهم الرسول (ﷺ) لأكتشفنا مقدار انفتاح تلك التعريفات على حاجات المجتمع، روى ابن عائشة حديثاً رفعه الى النبي (ﷺ)، قال فيه: ((الشعر
كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها، وتُسلُّ به الضغائن من بينها)).[11]

---

[8] ينظر: التفضيل الجمالي: د. شاكر عبد الحميد: 22، مطابع الوطن العربي، الكويت، 2001م.

[9] مبادئ الفن: كولنجوود: 54، ت: أحمد حمدي محمود، المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

[10] نقد الشعر: لابي الفرج قدامة بن جعفر: 17، تحقيق: كمال مصطفى، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978م.

[11] العمدة:1:28.

في هذا التعريف يحدد الشعر بوصفه جنساً أدبياً والمتلقي يستطيع أن يميز الكلام النثري المسموع ويكشف عن جماله، وهو عند العرب مستويات معروفة، ووصفه بالجزالة إتصافه بالرصانة والمتانة والقوة، والجزالة عند العرب صفة لظاهرة حية[12]، تأتي خلاف الركاكة،[13] وهي من محاسن الكتابة، وقد وصف بها الشعر أيضاً، تضم في محتواها جمال اللفظ، واستقامة المعنى، وهذا ما يفهم من هذا التعريف الدقيق..، وفيه كشف عن وظيفة مهمة للشعر تتمثل في إستلال الضغائن من نفوس الناس، فضلاً عن أنه وسيلة من وسائل إتصال الناس في البادية، وحتى تعريف الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ((الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه))[14]، لايخلو من تحديد دقيق لعلم القوم الذي هو في الحقيقة علم إحتياجاتهم، وتأملاتهم، ونزعاتهم النفسية، فالعلم في تلك الحقبة من الزمن هو التعلم والاعلام وتداول المعرفة بالشيء.

وقال الامام علي (عليه السلام): ((الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: ميزان قوم))[15]، وفي الروايتين تتلخص قيمة مطلقة من قيم جمال الشعر عندما يكون ميزان قول أي معيار قوم لايزن إلا الجليل المبهج في الفائدة.

أما في عصر التدوين فقد أخذت التعريفات تنحى منحى آخر عالج الشعر من زوايا إتسمت بالدقة والتحليل، فها هو الناشئ الاكبر (ت293هـ) يوصف الشعر بقوله: ((الشعر قيد الكلام وعقال الادب، وسور البلاغة، ومحل البراعة، ومجال الجنان، ومسرح البيان وذريعة المتوسل ووسيلة المترسل وذمام الغريب وحرفة الاديب وعصمة الهارب، وعذر الراهب، ومزحة المتمثل وحاكم الاعراب وشاهد الصواب)). [16]

---

[12] ينظر: التنظير الحسي في النقد الادبي: د. ماهر مهدي هلال: 163، مجلة الاداب– المستنصرية، ع11، 1985. وينظر: لسان العرب: مادة جزل.

[13] ينظر: معالم الكتابة: ابن شيت القرشي: 74، نشره الخوري قسطنطين المخلصي: بيروت 1913م . د.ط.

[14] العمدة: 1: 27.

[15] م.ن.

[16] البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيدي، تحقيق وتعليق د. ابراهيم الكيلاني: 117/2، مطبعة الانشاء، مكتبة أطلس، 1964م.

هذا التعريف لايفصل بين حدود الشعر ووظائفه، ففي البدء نلمح تحديداً لمفهوم الشعر في قوله: الشعر قيد الكلام، بمعنى أن الشعر يختلف عن الكلام الاعتيادي لانه يخضع لقواعد ومقاييس ولغة خاصة .. ثمَّ يشرح وظيفة الشعر عندما يربطها بـ: عقال الادب، وسور البلاغة ..الخ.

فهو يشير الى طبيعة الشعر من حيث أنه مقيد بإيقاع ولذا فهو يتطلب براعة خاصة والى ما يحققه من مهمات، فهو وسيلة الشاعر في استفتاح المغلق، وعون للكاتب المترسل وسبيلاً للاعتذار وموطن التمثل وإيراد الشواهد النحوية واللغوية.[17]

نلاحظ فيما بعد أن التعريفات إتجهت أتجاهاً آخر نجو التقييد وتقنين المفهوم وهذا تعريف ابن طباطبا (ت322هـ) الذي عدّ الشعر أنه: ((كلامٌ منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خصّ به من النظم الذي إن عُدِل عن جهته مجتّه الاسماع وفسد على الذوق)) [18]، يحيل جمال الشعر في خاصية الوزن من دون أن يتحدث عن الجماليات الاخرى، فهو يعتقد أن المنثور خطاب الناس الاعتيادي، أما الشعر فهو خطاب الذوق المنظم، أي خطاب خاص ولهذا وجب ترفع جماله.

إن قضية الوزن على كثرة من تحدث عنها مهمة إلا إنها خضعت لشروط كثيرة عند نقاد أخر، وها هو أبو العلاء المعري (449هـ) يعرف الشعر منوهاً بخاصية الوزن وإرتباطه بمخيلة المتلقي فهو يقول: ((الاشعار: جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس)). [19]

إن شروط الغريزة هي شروط التلقي، تلك الشروط التي تحدث عنها بزمن سابق لزمن المعري جماعة من العلماء حينما بلوروا مفهوم الجمال ومجسات تلقيه، فقد نقل ابن سلام مقولة هؤلاء: ((ليس للجودة في الشعر صفة إنما هو الشيء يقع في النفس عند المميز..)) [20]، وهناك من عدّ هذه المقولة إنجازاً نقدياً خطيراً مؤداه أن وظيفة الشعر تكمن

---

[17] ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب: د. إحسان عباس: 64.

[18] عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي: 41، تحقيق، د. محمد زغلول سلام، ط3، مطبعة التقدم، 1977م.

[19] رسالة الغفران: أبو العلاء المعري: 144، حققه وقدم له المحامي فوزي عطوي، د.ط. د.س، بيروت، لبنان.

[20] العمدة:1: 119.

في مدى القدرة على الافهام والتعجيب تخلق عن طريق التلقي الممتزج بالتفاعل النفسي النصي، ذلك لأن المتلقي يمتلك لوحدة سلطة اكتشاف النص وتحديد ابعاده الجمالية والفكرية وهذا يعني بالنتيجة أن النص الشعري لاوجود له خارج عمليات التلقي.. [21]

إنّ ما نقله ابن سلام ليس شيئاً هيناً وسهلاً، سيما إذا ما وجدناه في حداثة النقاد المعاصرين، عند كل من ا.آ رتشاردز الذي قال: ((إن الجمال ليس صفة في الاشياء أو الاعمال الفنية، بل هو عبارة عن تجربة شعورية يمر بها المشاهد، أو المستمع، أو القارئ)) [22]، وجان كوهين الذي قال: ((إن الجمال ليس صفة خاصة بالشيء ذاته، ولكنه الأسمى في النفوس)) [23] ولسنا هنا في صدد تحديد السبق والفضل وإنما همّنا الاشارة على ذلك الوعي النقدي المتقدم لدى نقادنا الأول.

إن المتلقي هو الذي يحدد معايير الجمال ويوجهها، وفاقاً لما يحمله النص من دلالات تحمل المتلقي الى الالتفات نحوها[24]، ومن هنا تتباين وجهات الجمال وتتسع لتباين الذوات المتلقية ...

إنّ جمالية الشعر اللائذة في النفوس وجدت ضالتها في (منهاج البلغاء وسراج الادباء) فها هو القرطاجني (ت684هـ) الذي استقى الاصول الفلسفية وتشربها، نهض بتعريف عقلاني موجها النقد من خلاله، ومستفيداً مما انتهى إليه من الثقافة العربية الاصيلة، والثقافة اليونانية[25]، مبلوراً قضيتها في تعريفه الشهير: ((الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يجيب الى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة..)).[26]

---

[21] ينظر: دليل الناقد الادبي: د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي: 191، ط2، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، 2000م، وينظر: تلقي جمال الشعر في النقد العربي القديم: د. فاضل عبود خميس التميمي، جريدة القادسية، 1999/11/22م.

[22] مبادئ النقد الادبي: ا.ا. رتشاردز: 5، ترجمة وتقديم: د. مصطفى بدوي، مراجعة، لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، مطبعة مصر.

[23] بنية اللغة الشعرية: جان كوهين: 10، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، د.س.

[24] ينظر: التأويل في النقد العربي: مشحن حردان مظلوم: 89، رسالة دكتوراه، اداب بغداد، 1999م.

[25] ينظر: الاتجاهات الفلسفية في النقد الادبي: سعيد عدنان: 95، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، 1987م.

[26] منهاج البلغاء وسراج الادباء: حازم القرطاجني: 71، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجه، تونس 1966م.

ثانيا: ماهية الشعر

إن التعريفات السابقة للشعر قادت الباحثين والمتابعين الى تحديد الماهية، ماهية الشعر نفسه بعيداً عن المصطلحات المدرسية، وقريباً من الجوهر الحامل لقضية الشعر نفسه .. وعلى وفق حدٍ معلوم، ((فالحد قولٌ دالٌ على الماهية)) [27] كما يؤكد النقاد.

أرتبط تشكيل الشعر عند العرب منذ القديم ((بالميتافيزيقيا)) فالشعر عندهم من نتاج شياطين متخصصين في القول، والشعراء في كل الاحوال لايستطيعون القول، قول الشعر، إلا إذا اقتربوا من جغرافية الشياطين والجن، وهذا وادي عبقر مسكون بالشعر والشعراء، وهذا مانجده عند الجاحظ في قوله: ((وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وإرتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة، ولامكابدة ولااجالة فكر...)) [28] وكثيراً ما تداولت كتب النقد والادب قضية صلة الشعر بالسحر وما بينهما من ترابط،[29] يتجلى ذلك من خلال ما يحدثانه من أثر في الاخرين بطرائق لايدرك كنهها.

وهناك آخرون حذوا حذوا الجاحظ .. حتى ان بعض الشعراء في الاسلام ظل يزعم أن له تابعاً من الجن، ويؤكد الاسطوره أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما إنثى أو ذكراً بقوله: (من الرجز)

إني وكلُّ شاعر من البشــر شيطانــه انثى وشيطاني ذكر [30]

وروى ابو زيد القرشي في جمهرة اشعار العرب[31] أشعاراً كثيرة لغيلان الصحراء ولجنّة معروفين.

---

[27] مفهوم الشعر: جابر عصفور: 237.

[28] البيان والتبيين: الجاحظ: 28/3.

[29] ينظر: النقد الادبي وأثره في الشعر العباسي: ناصر الحاني: 120، مطبعة بغداد، بغداد، 1955م، وينظر: زهر الاداب: الحصري: 18، والعمدة:1: 27.

[30] الحيوان: 229/6، وللمزيد ينظر: في العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف: 197، ط11، دار المعارف بمصر 1986م، وينظر: من شعرية الشعر الى شعرية الكلام عند القدامى: د. الطاهر الهمامي: 1، مجلة الموقف الادبي، ع350، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003م.

[31] ينظر: جمهرة اشعار العرب: ابو زيد القرشي: 43، ومابعدها، حققه وضبطه: علي محمد البجاوي، ط1، دار نهضة مصر، الفجالة، دار نهضة مصر، 1967.

إن مصطلح شياطين الشعر من المصطلحات التي ظهرت في كتب النقد وكان ظهورها يعبر في حقيقة الامر عن نزعة ابداعية تسوّغ لفكرة كون الشاعر شخصاً يختلف عن الاخرين، ولعدم معرفتهم – أي النقاد – الاسباب الموضوعية للأبداع اتجهوا الى الادعاء أن الشيطان هو الذي يمنح هذه القدرة الابداعية، الشيطان هنا يعني قوى خارجية تتدخل في عملية الابداع، وليست قوة داخلية في ذات المبدع.

إن مادة الشعر، أي ماهيته عند العرب تنقسم على قسمين:

1. **الماهية الذهنية:**

التي حامت حول مفهوم الشعر الغائر في المعاني المتخيلة فالشاعر نتاج الشعور ولعل كلمة (شعر) في المعجم تحيل على مثل هذا المعنى.

هذا المعنى الاول الذي ارتبط بقوى خارقة تكمن خارج الوعي الطبيعي مثل الجن والشياطين .. الخ، فقد اعتقدت العرب أن للشعر الهة وشياطين، وان لكل كاهن رئياً أو نجياً، وان الشعر وشيجة تصله بالقوى الماورائية، فيبدو وكأنه إلهام أو وحي،[32] ولم يذهب القدماء هذا المذهب لولا إيمانهم بعبقرية الشاعر وتفرده بين الناس بموهبة توحي إليه الشعر. [33]

2. **الماهية اللغوية:**

وهي مجموعة من البنى التي رأت في الشعر خطاباً ممزوجاً بأسرار النظم، فالشعر يستمد خصائصه من خصائص اللغة فيه، وأن علاقة اللغة بالجمال تقوم على مبدأين هما:

الاول: التعريف به وبمعانيه ودلالاته المتطورة تطور الحياة وهذا ما نهضت به معجمات اللغة.

الثاني: خلق الجمال والكشف عن اسراره وأنواعه وأشكال تجليه، وسبل التلذذ به ومحاولة تجسيده بوساطة التعبير في فن قولي يُمثل اللغة في أرقى مستوياتها يقصد به الشعر. [34]

و((اللغة هي بنيان الادب وهيكله، وهي وعاء الخبرة الجمالية ومحتواه، وبدون دراسة

---

[32] ينظر: تاريخ اداب العرب: مصطفى صادق الرافعي: 50/3، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974م.

[33] ينظر: معجم النقد العربي القديم: د. أحمد مطلوب: 84/2، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1989م.

[34] ينظر: الجمال وألفاظه: 32.

مقومات اللغة الادبية والمفردات الشعرية ليس هناك نقد موضوعي منهجي وليست هناك خبرة جمالية تستند على أساس علمي)). [35]

لقد استقر هذا المفهوم عند النقاد العرب منذ وقت مبكر عندما عاينوا الشعر بوصفه نمطاً من الكلام المغاير للمألوف [36]، تتربع على قمته المقولتان الشهيرتان لكل من ابن سلام في قوله: ((وللشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات)) [37]

وهذا يعني أن الشعر أنموذج منفتح على مجموعة من الصناعات والعنايات التي كان الناس قد ألفوا خطابها، والصناعة هنا نمط من أنماط العناية بالكلام الفني، التي تشكل اللغة مادته الاساسية التي يخرج من خلالها عن السمت العادي للكلام فيسمو بذلك عن أنماط الكلام الاعتيادي.

والجاحظ في قوله: ((إنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير))، [38] ربط بين اللفظ والمعنى ((ولعلَّ القصد من توظيف مصطلح التصوير في مفهوم الجاحظ هو التركيز على تشخيص المعنى للمدركات الحسية))، [39] والجاحظ في هذا الشأن إنما ((يطرح لأول مرة في النقد العربي فكرة الجانب الحسي للشعر، وقدرته على اثارة صور بصرية في ذهن المتلقي، وهي فكرة تعد المدخل الاول، أو المقدمة الاولى للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى)) [40]، هذه هي نظرة الجاحظ للشعر بشكل عام وهي نظرة فنية أصيلة تسندها قاعدة فلسفية لم يبرزها الجاحظ، ولكنها برزت في جهود النقاد الذين أتوا بعده. [41]

جماليات الشعر:

---

[35] النقد التطبيقي التحليلي: د. عدنان خالد عبد الله: 21، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986م.

[36] ينظر: الشعر ومتغيرات المرحلة: الشعر والتراث: د. حمادي صمود و د. علي جواد الطاهر: 15.

[37] طبقات فحول الشعراء: ابن سلام: 16.

[38] الحيوان: 131/3.

[39] الاتجاه النفسي في نقد الشعر: د. عبد القادر فيدوح: 319، ط1، إتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1992م.

[40] الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي: د. جابر عصفور: 26، ط2، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1983م.

[41] ينظر: إتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري:محمد مصطفى هدارة:533، ط2، دار المعارف، بمصر، 1970م.

لم يعدم العرب مفهوم الجمال، والمتتبع للتراث النقدي يجد أن الهوية الجمالية تضرب جذورها فيه،[42] لتشكل نمطاً من التفكير البلاغي النقدي فهي بلا شك تنضوي تحت أطر معينة يمكن البحث عنها عبر السؤال الاتي:

ترى أين تكمن تلك الاطر ؟ وكيف تشكلت ؟ وكيف يمكن لنا أن نكشف عن فاعليتها النقدية ومرجعياتها النصية ؟ هذه الاسئلة تقود الى اجابات مؤداها: ((إن تحديد الجمال وتأطيره على نحو دقيق أو شبه دقيق، أمرٌ ما زلنا نقف عاجزين أمامه حتى أيامنا هذه، وليس في ذلك عيبٌ أبداً لأن طبيعة الجمال غير منفصلة عن الذات المتلقية، هذه الذات التي تتباين أحوالها وتتخالف وتتضارب أهواؤها..)) [43]

هذه الدراسة تحاول جاهدة أن تقترب من التفكير الجمالي العربي من خلال قراءة الاراء المبثوثة في ثنايا الكتب الادبية سواء ما كان منها نصاً صريحاً أو ما يمكن أن يستشف منه بإمكانية التأويل والتحليل.

وإذا كنا نفتقر بالامس الى مفهوم الجمال بعده مصطلحاً نقدياً في تراثنا، فإن الدراسة بحاجة اليوم الى تلمس دلالالته، أو سماته، فتراثنا يزخر بالكثير منها، وإنّ ارساء هذا المفهوم لابدّ له من أن يتأسس على ملمح جمالي سابق لما اجترحه القدماء.[44]

الرؤية العربية لمفهوم الجمال تنبلج من جانبين مهمين:

الأول الجانب الحسي الذي يتمركز في اطاره الوصفي[45]، المطلق بعيداً عن التقييد، وهذا ما سنتناوله في هذا المبحث، أما الجانب الثاني فيتمحور في الجانب الدلالي العقلي، وما انعكس فيه من أثر الفكر اليوناني، حيث بدأ التعامل مع الشعر ينحى منحىً آخر يستلهم من الفلسفة بمنظورها العام،ومن الفكر الارسطي بمنظوره الخاص،وهذا ما سنتناوله في المبحث اللاحق.

الاطار الوصفي الحسي:

---

(42) ينظر: رؤية لمورثنا النقدي: محمد صالح الشنطي: 2، مجلة رؤى، ع2، 1998م حائل.

(43) مقومات الجمال عند الجاحظ: عزت السيد أحمد: 2، مجلة التراث العربي، ع61، دمشق، 1995م، وينظر: الظاهرة الجمالية: 21.

(44) ينظر: رؤية لمورثنا النقدي: 3.

(45) ينظر: التنظير الحسي في النقد الادبي: د. ماهر مهدي هلال: 162، مجلة الاداب المستنصرية، ع11، 1985م، وينظر: مقومات الجمال عند الجاحظ: 2.

وهو إطارٌ يتمثل توصيفه في ما نقله لنا الجاحظ من جواب الرسول (ﷺ) عن سؤال ابن عباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) ((فيمَ الجمال ؟ قال: الجمال في اللسان))[46] هذا القول يجعلنا نتلمس مرجعيات الرؤية الجمالية في الشعر العربي في مرحلة مبكرة من حياة النقد العربي، فمرموز (اللسان) في قوله (ﷺ) لايعني مطلق اللغة وانما أراد به نتاج اللسان، ومنه الشعر.

وإن ما يعزز ما نذهب اليه في هذا القول، حديث آخر للرسول (ﷺ) حين قال: ((ان من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة)) [47].

ومن المعروف أن الذائقة الادبية الجمالية هي التي تقرر بفطرتها مقاييس الجمال بما وعته قريحتها من المدركات الحسية، تلك التي تدرك بواحدة من الحواس أو أكثر.[48]

فالجمال في متناول البصر والسمع وهو ينتج أيضاً من تنظيم الكلمات ويوجد في الموسيقى ... وفي النفس قدرة تدرك الجمال أكثر من باقي القوى، وتنسجم النفس بالجمال لان بها فكرة عنه [49].

إن نزوع النقد الى الحسية يتمثل في اتجاهين:

الاول: يمثله الاتجاه الحسي المحض (الظاهري) الذي يحدث انفعالاً جمالياً حسياً تعكسه ظواهر الصور، وتجسده المدركات الحسية المتعارفة، والذي كان الاكثر شيوعاً في النقد العربي.

أما الاتجاه الثاني: فهو الاتجاه الحسي (الباطني) المعني ببواطن الصور وهذا ما عكسته لنا توجهات الفلاسفة والمفكرين من أمثال (الجاحظ، التوحيدي، الغزالي) فقد انضوت مقولاتهم في ضمن الاطار الجمالي البحت، أو الجمال الحسي، وكان لتلك المقولات بالغ الاثر فيمن جاء بعدهم، ولم تقتصر تلك المقولات على ذكر الحواس من حيث هي أدوات إدراك

---

[46] البيان والتبيين: 170/1، ولم أجد الحديث في كتب الصحيح، وللمزيد عن هذه القضية، ينظر :البرهان في وجوه البيان:64.

[47] الفاضل: المبرد: تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956م.

[48] ينظر: الظاهرة الجمالية: 21، نذير حمدان، دار المنارة، جده، السعودية، د.ط. د.س.

[49] ينظر: في فلسفة الجمال من افلاطون الى سارتر: اميرة حلمي:114، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة،1974م. د.ط.

الجمال، بل اضيف لها عامل آخر وهو القلب أو البصيرة الباطنة. [50]، وهذا ما يمثله الغزالي في قوله: ((فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر (..) والصور ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر، والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة..)). [51]

ويمكن أن نلمح الاسس التي يقوم عليها الحكم الجمالي بصفة عامة عند التوحيدي في قوله: ((فأما الحَسَن والقبيح فلا بدّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لايجور فيرى القبيح حَسَناً والحسن قبيحاً، فيأتي القبيح على انه حَسَن، ويرفض الحسن على أنه قبيح، ومناشئ الحسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي ومنها بالعادة ومنها بالشرع ومنها بالعقل ومنها بالشهوة. فإذا اعتبر هذه المناشيء، صدَّق الصادق منها وكذَّب الكاذب، وكان استحسانه على قدْر ذلك)). [52]

أما الجمال الذي وقف عليه النقاد البلاغيون ووصفوه أو اعتنوا ببيانه فهو – في الغالب – الجمال الشكلي الذي يلمس بالحواس. [53]

ومن المعروف أن التناظر الحسي يشكل جانباً مهماً في تقرير الاحكام النقدية والبلاغية[54]، وهو في الاصل قائم على مقاييس كانت متعارفة تحت مسميات ((التناسب والتناسق والتلاؤم والتنافر...)) وما تعكسه تلك المصطلحات من اثر في تحديد مفاهيم الجمال الحسية، التي استمرت ردحاً من الزمن تدور في أفلاك الحسية، ويمكننا إلتماس ذلك عند الجاحظ في قوله: ((وأجود الشعر مارايته متلاحم الاجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ افراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان)) [55].

فالنزعة الحسية لادراك الجمال باتجاهيها الظاهري المجرد – والباطني)) تمثلان الوجه الاول للجمالية العربية بإطارها الحسي.

---

[50] ينظر: الاسس الجمالية في النقد العربي: د. عز الدين اسماعيل: 136، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م.

[51] إحياء علوم الدين: الغزالي: 1678/2–1680: دار ابن الهيثم، القاهرة، 2004م د.ط.

[52] الامتاع والمؤانسة: ابو حيان التوحيدي: 150/1، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد امين واحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية بيروت، صيدا، 1953م. د.ط.

[53] ينظر: الاسس الجمالية: 138.

[54] ينظر: التنظير الحسي: 165.

[55] البيان والتبيين:1/ 67.

لقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة على الموروث البلاغي النقدي عند العرب زمناً ليس بالقليل أوالقصير، ولابدّ هنا من الاشارة الى ما كانت تمثل البلاغة عندهم – عند العرب – فهي علم الجمال الادبي، ومن هنا فإن مفاهيم البلاغة العربية وأسسها وقواعدها هي مفاهيم الجمالية الادبية في تراث العرب الفكري كما تهيأ لهم ان يستخلصوها من روائع شعرهم. [56]

لقد بدأ الجمال حسياً بحسب ما ذهبنا، وهذا ما عكسته جهود النقاد البلاغيين متمثلة بأحكامهم التي عدت الشعر ضرباً من ضروب الابداع وتوجهت به الى تنظير لغته بمحسوسات جمالية، فتن الانسان بها، كالصناعة، والنقش، والنسج، والتصوير [57]، وهذا ما تدلّه تلك المصطلحات التي تناولتها مؤلفاتهم مثل مدلولي الطبع والصنعة، وما يبرز من خلالها من السمات الجمالية الناجمة عن الفطرة، ((فإن النظم مبنى على الذوق)) [58]، الذي يُمثل بطرفي الخطاب الشعري بين مبدع النص ومتلقيه، فالمبدع منشئ الجمال بما يعكسه من صور اللغة المستخدمة ... وبما يحـاول من ذاك
الحشد من العناية والزخرفة في الفن القولي[59]، ليحمل اللغة الشعرية على اداء أهم وظائفها وهي اثارة الاحساس في المتلقي [60]، والجمال الفني تبرزه اللغة الجيدة، بما هو مهيأ لها من تضافر جملة من العوامل منها الاسلوب الشعري المعبر، وما هُيأ للشاعر من أداة فنية، هي في النهاية تخلق جمالاً محسوساً. [61]

اننا عندما نسعى لتحديد مفهوم الجمال في الشعر فإن هدفنا يرمي الى تحديد الوظيفة الجمالية التي يؤديها الشعر نفسه، ويتجلى ذلك من خلال ملاحقتنا لأراء النقاد وتصوراتهم، ما كان منها ظاهراً أم مغيباً، التي تفصح بشكل أو بآخر عن مكنونات الجمال، وها نحن نحاول تسليط الضوء عليها لاستنباط ما يترشح في مجال الوظيفة الجمالية في الآتي من الكلام:

---

[56] ينظر: مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ: ميشال عاصي: 25، مؤسسة نوفل، 1981م.

[57] ينظر: التنظير الحسي في النقد الادبي: 161.

[58] سر الفصاحة: 243.

[59] ينظر: الخصائص: ابن جني:1: 216، تحقيق: محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، 1955م.

[60] ينظر: مبادئ النقد الادبي: ا.آ. رتشاردز: 7.

[61] ينظر: أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي: منذر الجبوري: 114.

عبّر الاصمعي (ت216هـ) عن جمال الشعر مبكراً بقوله: ((الشعر ما قلّ لفظه، وسهل ودق معناه ولطف))، [62] فقلة اللفظ إشارة واضحة الى جمال الايجاز، ولطف المعنى .. تأكيد ضمني لمعنى الجمال في الشعر الذي تستجيب له رغبة المتذوق في استحسان النص ولطافته فالشعور بالجمال هنا يعطي النص كماله القائم على إختيار ألفاظه وصوره البيانية. [63]

أما الجاحظ (ت255هـ) فلم ترد لفظة الجمال عنده مصطلحاً نقدياً أو قيمياً إلا مرة واحدة وكما سبقت الاشارة الى ذلك. [64]

وما صدر عنه من مقولات دالة على قيم جمالية، يمكن عدها مصطلحات أو مفاهيم جمالية في علم الجمال ((كالرقة، والاناقة، والرشاقة، والعذوبة، والفخامة، والحلاوة، والظرف، واللطف، والحسن، والبلاغة، والجودة)) وهي من الكلمات التي تزخر بها لغتنا العربية، مفردات يمكن إتخاذها معياراً للاحكام النقدية. [65] التي درست الشعر وكشفت عن جمالياته.

فمثلاً لفظ الرقة في قوله: ((وحدثني من سمع اعرابياً يمدح رجلاً برقة اللسان فقال: كان والله لسانه أرق من ورقة، وألين من سرقة)) [66]، وفي قوله: ((والشعر الفاخر حسن، وهو في فم الاعرابي أحسن، وإن كان من قول المنشد وقريضه، ومن نحته وتحبيره، فقد بلغ الغاية وقام على النهاية)). [67]

أما قوله نقلاً عن بعض الربانيين: ((أنذركم حسن الالفاظ، وحلاوة مخارج الكلام؛ فإن المعنى إذا أكتسى لفظاً حسناً واعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم دلاً متعشقاً، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملاً، والمعاني إذا كسيت الالفاظ الكريمة، والبست الاوصاف الرفيعة، تحولت عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت،

---

[62] نضرة الاغريض: 1.

[63] ينظر: البحث العقلي في الجمالية العربية: د. عبد القادر فيدوح:2، مجلة التراث العربي، ع63، 1996م.

[64] ينظر: ص 32 من البحث.

[65] ينظر: مقومات الجمال عند الجاحظ: عزت السيد احمد: 5.

[66] البيان والتبيين: 169/1.

[67] التربيع والتدوير: الجاحظ: 63، تحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت. د.س. د.ط.

وحسب ما زخرفت فقد صارت الالفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجوارى، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قويٌّ، ومدخل خُدع الشيطان خفي)) [68]

لقد حشّد الجاحظ هنا كثيراً من الدوال التي تنعكس من خلالها معايير الجمال ((كالحسن والحلاوة والسهولة والبلاغة والرفعة ..الخ)) ولم يكتف بذلك بل إنه منحها سلطة فاعلية التأثير بما تمتلك من قيم جمالية وجعل منزلتها مرادفة لخدع الشيطان في فعله الخفي.

والقيم الجمالية عند الجاحظ مرتبطة بما تضاف اليه ولم تأتِ مجردة وهذا ما يمكن التماسه في قوله السابق ((حسن الالفاظ، حلاوة مخارج الكلام..الخ)) وهذا أمر متعارف عليه في مقولاته.

وهناك من عدّ الجاحظ في مرتبة علماء الجمال المعاصرين لنا، وإنه لم يقلَّ البتة فيما طرقه من تنظيرات قيمة في المفاهيم الجمالية،[69] يبدو أنَّ هذا الرأي فيه شيء من المغالاة، إننا لاننكر ما أثر عن الجاحظ من مقولات قيمة في مفاهيم الجمال، ولكنها لاتصل الى درجة العلمية.

أما ابن قتيبة (ت276هـ)، الذي نظَّر للابداع على وفق تطبيقات شعرية ونثرية كان همها البحث عن جمال النص، فانه كان واعياً لما يريد ومن يقرأ مقدمة كتابهِ (الشعر والشعراء) يلحظ أهتمامه بجمالية النص الادبي، لاسيما في تلك التقسيمات الى لاتخلو من رؤية جمالية فهي لم تأتِ عبثاً فلابدّ لها من معايير متعارفة كان ابن قتيبة على إلمام تام بها، ومن ثمَّ تبعه تلميذه ابن المعتز (ت296هـ) الذي وسّع مفاهيم البديع وتفوه بها شعرياً ماسكاً جماليات الشعر كما وعته ذائقة التقبل في عصره. [70]

فالجمال عند ابن المعتز على وفق فنون البلاغة المنضوية تحت لواء البديع بما فيه البيان.

---

[68] البيان والتبيين: 254/1.

[69] ينظر: مقومات الجمال عند الجاحظ: 1.

[70] ينظر: الشعر والشعراء: المقدمة، وينظر: البديع: لابن المعتز.

وابن طباطبا (ت322هـ) وحسه الجمالي الذي بدا حسياً مجرداً وعلى وفق معايير متعارفة في البيئة العربية ولاسيما في قوله الذي شبه فيه الشاعر ((كالنسَّاج الحاذِقِ الذي يُفَوفُ رشْيَه باحْسَن التَّفويفِ، ويسَدِّيه وينَيرُه ولايُهلهلُ شيئاً منه فيشينه_وكالنقاش الرقيق الذي يضَعُ الاصْبَاغَ في أحْسنِ تقاسِيم نْقشِه)) [71]

على أن قضية ربط البناء الشعري بالاحساس تطورت تطوراً ملحوظاً عند ابن طباطبا، إذا أخذت شكلاً عاماً يفسر الفن كله، ويرى الشعر على أنه ((رد فعل حسي، فهو يقيسه على بقية الحواس الجسدية... إذن فالشعر يعود الى مصدره باعتباره شيئاً مدركا، يخضع لما تخضع له بقية المدركات الحسية)). [72]

ثمَّ تنامى مفهوم الجمال عند ابن طباطبا الى ان تبلور بشكل واعٍ ولكنه لم يخرج عن الاطار الوصفي ومدلوله المتعارف عليه، نلمس ذلك في اكثر من موضع في كتابه (عيار الشعر) نخص منها القولين الاتيين:

((فإذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ، التام البيان ، المعتدل الوزن، مازج الروح، ولاءم الفهم، وكان أنفذ من نفث السحر))...، [73]

وقوله: ((والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله وتكرهه لما ينفيه، إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصلُ بها مما طُبعت له إذا كان وُرُودهُ عليها وروداً لطيفاً باعتدال لاجور فيه، وبموافقة لامضادة معها..)). [74]

ويرى بعض الباحثين في مقولة ابن طباطبا في الاعتدال هذه مذهباً جمالياً في النقد، ذلك أن العلة الجمالية تعرف بأنها ((الاعتدال)) دون أي عامل آخر. [75]

---

[71] عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي: 43.

[72] نصوص من النقد العربي: د. محمد محمود الربيعي: 30، دار المعارف بمصر، 1977م. د.ط.

[73] عيار الشعر: 54.

[74] م.ن: 52.

[75] ينظر: تاريخ النقد الادبي: د. إحسان عباس: 141، دار الشروق، عمان، 1986م، د.ط.

أما قدامة بن جعفر (ت337هـ) الذي لم يقل بالجمال صراحة فقد كان واضحا في رؤيته النقدية، ولكننا يمكن أن نلتمس في كتابه نقد الشعر أسس ومعايير تعدُّ من القيم الجمالية[76]، فهو مثلاً يشير في تعريفه لبعض الاساليب البديعية ((كالتقسيم والمقابلة والتفسير الى مراعاة عدم الوقوع في المخالفة وضرورة المناسبة بين أقسام هذه الاساليب)). [77]

لقد تنامى الوعي الجمالي الحسي عند العرب مسترفداً من البلاغة بوجه خاص فقد قرنوها مع الشعر [78]، وظلت مواكبة له، وهذا ما تعكسه احكامهم النقدية التي ترتكز على البلاغة بشكل دقيق، وإننا عندما نعطي البلاغة تلك القيمة العليا في مفاهيم الجمالية، لانبغي من خلالها الانتصاف لها، فهي ليست موضع جدل أو اتهام، وأنه مهما تشعبت الدراسات النقدية في مناهجها المتعددة (النفسية)، التاريخية، الاجتماعية، الفلسفية ..الخ))، يبقى للبلاغة القدح المعلى في دراسات النقد نظرياً وتطبيقياً. فإنها ترشد الى الوسائل التي تجعل من الكلام جميلاً، وهي في الوقت نفسه تهيىء لنا مقاييس لتقويم النص الادبي، يؤكد ذلك تسمية العرب لها علم صنعة الشعر [79]، وهذا ما نصّ عليه الآمدي في قوله: ((الشعر أجوده أبلغه، والبلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عَذْبة مستعملة سليمة من التكلف، لاتبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة، ولاتنقص نقصاناً يقف دون الغاية، وذلك كما قال البحتري: (من المنسرح)

والشعر لمحٌ تكفي اشارته وليس بالهذر طوَّلت خطبه [80]

فالكلام في الشعر بلاغي إبلاغي، بمعنى أنه يسعى الى القيام بوظيفة جمالية قد تسبق الوظيفة الابلاغية. [81]

---

[76] ينظر: البحث العقلي في الجمالية العربية: 3.

[77] نقد الشعر: قدامة بن جعفر:5، تحقيق: كمال مصطفى، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978م.

[78] ينظر: البحث العقلي في الجمالية العربية: 2.

[79] ينظر: النقد البلاغي عند العرب: عبد الهادي خضير: 49، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، الاداب، 1989م.

[80] الموازنة: الآمدي: 380، وينظر: شرح ديوان البحتري: 209، تحقيق: حسن كمال الصيرفي، القاهرة، 1963م.

[81] ينظر: في مناهج الدراسات الادبية: حسين الواد: 83، الطبعة التونسية: دار سراس، المطابع الموحدة تونس 1985م.

ABSTRACT

The present study, "The Function of Poetry in the Arab Rhetorical Heritage of Criticism from Al – Jahiz (d.255H.) to Hazim Al-Qirtajni (d.684H.)" Falls into an introduction four chapters and a conclusion A list of references and an abstract in English are also provided .

The Introduction pinpoints the concept of function as well as showing the importance of poetry in the Arab rhetorical heritage of criticim and the role of the Arab poet. Chapter One presents a study of aesthtics as a coneept and science related to poetry within the sensational and descriptive frame, as well as the cognitive and semantic frame . Chapter Two shows the poetic benefit (al – nafii al – shiiri)as a term which is not found in the Arab heritage . So, it was the task of the researcher to look for the origins of this term by studying it in formationully and historically Chapter Three studies the concept of ethics linguistically and terminologically . It also includes a study of the poetic ethics beginning with pre – Islamic era. Chapter Four investigates the educational function of poetry which can be classified into general and specific functions. The study ends with the conclusion that shows the results concluded.